# الرصد المنهجي لفلسفة التاريخ عند ابن خلدون

أ.م. د مكي خليل حمود
جامعة الكوفة / كلية الفقه

**المقدمة :**

لماذا اختيار شخصية ابن خلدون بالضبط؟.لأنه من أشهر علماء التاريخ العرب.ولأنه استأثر باهتمام الباحثين شرقا وغربا. لماذا ابن خلدون إذن؟

لأنه العبقرية التي أهدانا إيّاها القرن الرابع عشر الميلادي، وأهملتها القرون التالية.

وكان لا بدّ من انتظار القرن الثامن عشر ليبعث ابن خلدون من جديد، ولتحدث المفاجأة في الأوساط العلمية الأوروبية بترجمة «المقدمة» إلى الفرنسية أولا، ثم إلى الإنجليزية جزئياً، مطلع القرن العشرين، وإلى الألمانية أوائل ثلاثينات القرن الماضي، إلى أن نشرت بشكل كامل سنة 1958 في بريطانيا. وكانت المقدمة قد حظيت بدراسات عالمية للتعريف بها قبل هذا التاريخ، ثم توالت طبعاتها، مشمولة بتعليقات، منها ما قاله المؤرخ وعالم الاجتماع أرنولد توينبي، من أن مقدمة ابن خلدون «أعظم مؤلف من نوعه، لم يقم بإنجازه أي عقل من قبل في أي زمان ومكان»

بما ان موضوع فلسفة التاريخ هو تناول دراسة حركة المجتمعات البشرية وتطوراتها وأسباب انهيارها وسقوطها في مرحلة معينة من تاريخها.

المبحث الأول : ترجمة ابن خلدون:

ولد عبد الرحمان ابن خلدون في تونس (افريقية) سنة 1332 م وتوفي سنة 1406م، وقد ولد في فترة سقطت فيها الدولة الموحدية في المغرب والأندلس، وحوصر خلالها المسلمون في غرناطة،وانقسم الغرب الإسلامي إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة على رأسها دولة بنو مرين في المغرب الأقصى ودولة بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط والدولة الحفصية في تونس،وأصبحت كل دويلة عدوة لجارتها.

لقد ولد ابن خلدون في فترة الضعف السياسي الإسلامي بل ولد في مرحلة بدأت أوربا تتقدم والمسلمون يتراجعون، لقد ولد في زمن النكسة.

وعندما بلغ سن التعلم، بدا بحفظ القران وتجويده، حسب المنهج الذي كان متبعا آنذاك بالمسجد المعروف بتونس (مسجد القبة)، درس التفسير، الحديث، الفقه المالكي.. التوحيد، المنطق، الفلسفة والرياضيات.وقد تحدث ابن خلدون عن هذه المرحلة بنفسه في كتابه(التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا).

عندما بلغ سن 17 – سنة 739– حدث الطاعون الكبير الذي عم من آسيا إلى الأندلس وفيه مات والده وأكثر من كان يأخذ عنهم العلم، وعكف ابن خلدون على طلب العلم، حتى استدعاه بعد 3 سنوات الوزير أبو محمد بن فزاكين بتونس لكتابة رسائله الرسمية.

وفي سنة 755 استدعاه السلطان المريني أبو عنان إلى فاس التي أمضى بها 9 سنوات في العمل ضمن الكتاب والموقعين وخلال هذه الفترة اتجه إلى القراءة والمطالعة.

سجن سنة 758 لاشتراكه في مؤامرة ضد السلطان المريني، فقد دبر محاولة لتحرير الأمير عبد الرحمان محمد الحفصي صاحب بجاية المخلوع على أن يجعله حاجبا، فبلغ المؤامرة لأبي عنان فسجنه.

وبعد خروجه اتجه إلى غرناطة بالأندلس إلى السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر باني مسجد الحمراء بغرناطة، الذي أوكله بسفارة إلى ملك قشتالة باشبيلية وقد كانت سفارة ناجحة اقطعه السلطان أراضي شاسعة، أعجبته الأندلس فاستقر بها واستقدم أبناءه وأهله إليها، وهيا لهم جميع أنواع الراحة لكن السعادة لم تستمر، إذ يبدو أن الحساد ضده قد كثروا فهو الغريب وذو الحظوة عند السلطان، فسعوا بالدسائس حتى حدثت الفجوة بينهما، فأدرك ابن خلدون أن أيام الأندلس قد باتت قصيرة، وان لامناص من الرحيل.

عاد إلى المغرب وبدا يتقلب في المناصب في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى أصبح موضع ريبة وشك من الجميع، فجاز مرة أخرى إلى الأندلس سنة 766هـ لينزل ضيفا عند السلطان ابن الأحمر، لكن بلاط فاس وخشية منه منعوا أولاده من الالتحاق به فعاد إلى تلمسان، واعتزل السياسة نهائيا ولجا إلى جبل كزول ثم اعتكف بقلعة ابن سلامة بالجزائر حيث أقام بها 4 سنوات كتب خلالها كتابه الشهير (المقدمة) المشهور حاليا بمقدمة ابن خلدون.

وفي سنة 780 رجع ابن خلدون إلى تونس، فكثرت ضده الدسائس والأحقاد، فتذرع بقضاء فريضة الحج فركب البحر إلى الإسكندرية، فودع بذلك المغرب والأندلس إلى غير رجعة، وفي مصر التي مكث فيها 25 سنة من عمره أتم كتابه في التاريخ المسمى ( كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وأصبح مدرسا بجامع الأزهر وتولى منصب القضاء.

وفي مصر فوجع ابن خلدون في أبناءه جميعا،فقد غرقت السفينة التي قدموا فيها من تونس، فمات أهله وأولاده، فعظم المصاب والجزع،فاعتزل القضاء واتجه للحج وزار بيت المقدس، والتقى بتيمورلنك في دمشق ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها في 25 رمضان 808.

الأمر الأول : كتب ابن خلدون

لابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم...ويتكون من مقدمة وثلاث كتب.

المقدمة والكتاب الأول في موضوع العمران يشكلان ما يسمى الآن مقدمة ابن خلدون.الكتاب الثاني يتناول تاريخ العرب إلى عصر المؤلف. أما الكتاب الثالث فموضوعه تاريخ البربر وذكر أوليتهم وأجيالهم بالشمال الإفريقي.وذيل المؤلف هذا الكتاب بخاتمة في سيرته الذاتية تسمى (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا).

الأمر الثاني : أراء العلماء فيه:

لعل التنوع المعرفي في مرجعية ابن خلدون قد بحث فيلسوفا وتاريخيا وفي مجال علم الاقتصاد والسياسية والتصوف والاجتماع حتى عد مؤسس لعلم الاجتماع.

كما يلاحظ دارسوا ابن خلدون من أن اهتمام الغرب به أفاق بكثير كيفا وكما اهتمامنا نحن أصحاب الثقافة العربية بهأن الغرب هو الذي العادة اكتشاف ابن خلدون في العصر الحديث لعل ابسط وأوضح دليل نقدمه على هذا أن الدكتور عبد الرحمن بدوي عندما قدم في نهاية كتابه عن مؤلفات ابن خلدون الذي أصدرت عام 1962م بتكليف من المركز القومي للعلوم الاجتماعية والجنائية إحصاءا للبحوث المختلفة التي تناولت ابن خلدون سواء كانت في صورة كتاب أم مقال أو رسالة جامعية سجل ان عدد هذه البحوث مئتان وستة وتسعون بحثا منها واحدة وستة وستون

بحثا بالغة العربية ومئتان وخمسة عشر بحثا بالغات الاجنية المختلفة، ولابد أن هنالك عشرات البحوث التي ظهرت بعد ذلك فالأيام تكشف دائما عن جوانب جديدة في فكر ابن خلدون تستحق الدراسة.

قال عنه روبرت فلينت في كتابه "تاريخ فلسفة التاريخ" "انه منقطع النظير في كل زمان ومكان، حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس اوغسطينوس بأنداد له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه".

لقد تغيرت آراء علماء الغرب فقد كانوا يزعمون أن فيكو هو أول من فكر في علم التاريخ، ولكنهم علموا بعدئذ أن ابن خلدون قد سبقه إلى ذلك بمدة تزيد عن ثلاثة قرون ونصف القرن، وانه أقام دراسته لتطور الحضارة الإنسانية على دعائم علمية قوية، فإذا كان كتاب فيكو يعتبر بمثابة تفلسف في تاريخ الإغريق والرومان، فان مقدمة ابن خلدون تفلسف في تاريخ العرب والإسلام.

لقد أصبح التاريخ بفضل ابن خلدون علما منهجيا راسخا، ولم يعد سردا للحوادث بل تعليلا لها.

تذكر المؤلفة الدكتورة عطيات محمد أبو السعود قولا مغايرا باتجاه مؤسسي فلسفة التاريخ عند الغرب والشرق: (ويمكن القول ان مكانته– فوكو– في التراث الغربي تماثل مكانة ابن خلدون في التراث العربي) وهذه المعادلة تبرر نشأة فلسفة التاريخ عند ابن خلدون في مقدمته التي ادعى بها علما جديدا لم يسبقه أحد لا من مفكري الشرق ولا من مفكري الغرب وقد أطلق ابن خلدون على علمه الجديد اسم العمران، ويفتخر ابن خلدون بهذا العلم ويعتبر نفسه مبتكرا ومخترعا في هذا التأليف ولم يكن مقلدا أو مقتبسا من أحد.

لقد كان ابن خلدون شخصية غير متوقعة بالنسبة لعصره، ذلك العصر الذي بلغ تفكك العالم الإسلامي فيه مبلغه بين دويلات طائفية متناحرة، لذلك فقد بقيت مقدمته مغمورة وضائعة وسط صخب صراع الدول الطائفية ووسط أمة خاملة، إلى أن ترجمها الأوربيون واستفادوا منها، وقامت دراسات متعددة حولها تعد بالآلاف، ولقد قال جورج سارتون في حق ابن خلدون "لم يكن فحسب أعظم مؤرخي العصور الوسطى شامخا كعملاق بين قبيلة من الأقزام، بل كان من أوائل فلاسفة التاريخ سابقا ميكيافلي وبودان وفيكو وكونت وكورتو، وقد اعتبر المستشرق الفرنسي سيلفيستر دي ساسي (1758–1838) الذي درس الإنتاج العلمي لابن خلدون بقوله "انه مونتسكيو العرب، ثم فر يدريك شولتز (1799– 1829)الذي أشار إلى ضرورة إصدار نشرة سريعة وترجمة لهذا البحث الفلسفي لمؤلف يدعى بحق "مونتسكيو الشرق"، ذلك أن المنهج الخلدوني التاريخي تميز بالدقة العلمية، فلقد كان التاريخ قبله لونا من ألوان الأدب ونوعا من المسامرة وسرد الحوادث.

المبحث الثاني : منهج ابن خلدون في فلسفة التاريخ :

لقد كان الأقدمون ينظرون إلى التاريخ نظرتهم إلى ديوان أخبار، ولم يعدوه علما من العلوم له قواعده وأصوله وأسسه ومناهجه، ولا ينكر أحد أن التاريخ على يد ابن خلدون أضحى علما متكاملا راسخا، إذ لم يهتم فقط بالتساؤل عن أحداث الماضي وتسجيلها، وإنما كان يسال أيضا عن كيفية حدوثها، فتساءل عن سبب وقوع هذه الأحداث، وحاول استجلاء أهم العوامل والأسس التي تتقدم من خلالها الحضارة، وكذلك العوامل والأسباب التي تؤذن بخرابها، لذلك اعتبره العديد من الباحثين والمتخصصين بأنه إمام لفلاسفة التاريخ،لأنه ولأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني يبتدع ابن خلدون علم الاجتماع البشري والقوانين المنظمة للحياة وتطور المجتمع.

وقد تخصص فيه علماء كبار كمسكويه وابن خلدون وابن الربيع والطقطقي وغيرهم أما اليوم فلا نجد بحوثا في هذا المجال إلا النزر القليل بالرغم من أهمية في مجال التوجيه وصياغة الأفكار ونشرها وبالرغم من دوره في خوض الصراع العقائدي وفي بناء الحضارات.

والفرق بين علم الاجتماع وفلسفة التاريخ كما هو معروف هو أن علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، سواء في حالة ثبوتها ام في حركتها، بطريقة تجريبية بقدر الإمكان، بينما تدرس فلسفة التاريخ هذه الظاهرة بطريقة اعم، غير مقيدة بالزمان او المكان، تدرسها من حيث الغاية التي تسعى إليها والقانون المطلق الذي يتحكم فيها فيه عبر التاريخ لان فلسفة التاريخ التي تدور أساسا في فلك الفلسفة، أو بعبارة أخرى هو العلم الذي يبحث الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية؛ فيسعى لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية، ويعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدولة على مر القرون والأجيال.

فقد فرق ابن خلدون بين التاريخ وفلسفته، علما ان التاريخ والفلسفة يعملان في تاريخ الافكار فقد قال الدكتور حسن الساعاتي:(فلئن كان فضل المؤرخين القدامى في امانة النقل وغزارة المادة التي صنعوا منها كتبهم، فان ابن خلدون قد أضاف الى ذلك فضلا آخر في ناحيتين، الاولى في تفرقه بين التاريخ وفلسفته، والثانية في تساؤله الدؤوب عن العلل والأسباب للحوادث والوقائع ومحاولة الوصول الى إجابات منطقية مستمدة من معرفته بطبائع العمران )

المطلب الأول : القراء التأويلية لتطبيق منهج فلسفة التاريخ:

وينطلق هذه المطلب من إشكالا هل ابن خلدون عالم اجتماع أم مؤسس لفلسفة التاريخ ؟

يمكن قراءة فلسفة ابن خلدون عند الباحثين تفسيرين مهمين :

1- القراءة الديناميكية : أشارة الدكتورة زينب محمود خضيري في دراستها لابن خلدون (فلسفة التاريخ عند ابن خلدون) في فصل كامل أسمته (ابن خلدون فيلسوف للتاريخ) وقد ناقشت ذلك بأنه فيلسوفا قبل أن يكون عالم اجتماع ردا على فرورو وجمبل وفتيرإن ما أتى بفلسفة في الاجتماع ولم يرقى لدرجة العلم، وقد استدلت برأي الدكتور طه حسين الذي قال بان ابن خلدون : (إن ابن خلدون يدرس المجتمع ليفسر التاريخ).

نستشف من رأي الدكتور طه حسين بان ابن خلدون كان يدحض هذه الآراء بأنهأتى بشيء جديد وهو العمران البشري المقصود به (فلسفة التاريخ الإنساني) ويدلل على ذلك بان علم الاجتماع هو جزء من العمران والبناء البشري لدراسة الانثروبولوجيا الإنسان(دراسة الإنسان وحركته الدوري ) وبهذا يكون هو الحضارة التي يصنعها من خلال حركة للتاريخ وهذا ما يؤيده كلا من نيكولوسون في كتابه (تاريخ الأدب لدى العرب) وتوينبي في كتابه (دراسة التاريخ) وأ. روزنتال في كتابه (ابن خلدون : مفكر من شمال أفريقيا في القرن الرابع عشر) وقد أيد هذه الآراء الباحث ساطع الحصري والدكتور عبد الرحمان بدوي وغيرهم.

فعلى أية حال فان الدكتور زينب تؤيد مقولة الديناميكية التي تجعل نظرية فلسفة التاريخ لاعلم الاجتماع عند ابن خلدون.

2- القراءة الدياليكتكية : ان عامل قيام الحضارة هو نفسه عامل تدهورها وفنائها ؟ وبذلك يشير ابن خلدون إلى وحدة الطبيعة البشرية وتماثل طبائع الأحوال في العمران ثم ينبه الى الاختلاف الايام والازمنة، وتبدل الأحوال بتبدل الاعصار فان ذلك لا يتسنى الا بتفسير مقولة الديالكتيكية كمنهج -كما هو عند هجل -حتى يطبقه التاريخ ومساره

وانما يمكن ان نستخلص الديالكتيكية من مسار النظرية.كما هو الترف الحضاري مظهر الحضاري وهو هدام وترف غايته العمران بناء للعمران.

فبهذا يتضح أن ابن خلدون وظف علم الاجتماع في قراءة تاريخ الإنسان فاسماه العمران البشري ويصطلح عليه اليوم فلسفة التاريخ، فهو يهتم باكتشاف السنن والقوانين التي تحكم تحولات ومتبدلات الأمم والشعوب عبر الماضي والحاضر والمستقبل، فان فلسفة التاريخ تبحث في تحديد الاتجاه العام لتطور الإنسانية وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية.

وهنالك تيار خاص يجري عكس هذا الاتجاه متمثل في كل من الدكتور على عبد الوافي الذي عده مؤسس لعلم الاجتماع وقد أنكرإدراج المقدمة ضمن فلسفة التاريخ فقال انها بحوث استقرائية لحقائق تاريخية لهذه النظريات، وقد أيد ذلك الدكتور هاشم الملاح بنقده للدكتور الحصري قائلا: (إلا ان بعض الكتاب العرب بدؤوا يراجعون هذه المسلّمة ويترددون في قبولها بحجة انه ليس هنالك تطابق تام بين علم الاجتماع الحديث (السوسيولوجيا) وعلم العمراني الخلدوني).

المطلب الثاني : صفات فلسفة التاريخ عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون في مقدمته:( أنشأت في التاريخ كتابا....أبديت فيه لاولية الدولة والعمرانية عللا وأسباباً.... فهذبت مناحيه تهذيباً، وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريبا وسلكت في ترتيبه مسلكا غريبا، واختراعه من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها،.. حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيامو الأجيال وما بعدك) .

يتحدث ابن خلدون عن أمور في منهجيته التبويب ثم عدم التقليد فكان يقصد بها الابداع وتطرق إلأبوابه فيعلن ابتكاره بقوله : (وتقف على أحوال ما قبلك من الأيامو الأجيال وما بعدك) ويقصد به فلسفة التاريخ، معلنا بأنه لم يسبقه احد من قبل قائلاً: (واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة اعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص وليس من علم الخطابة... ولا هو أيضا من علم السياسة المدنية... فقد خالف موضوعه موضوع الفنين اللذين ربما يشبهانه وكانه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة).

ما هو العلم الجديد الذي أتى به ابن خلدون ولم يسبقه احد إليه؟ وهل كان يدرك هو ذلك تماماً؟ هو فلسفة التاريخ التي تظهر في أوربا الابعد ذلك بعدة قرون. وبديهي ان التفلسف في التاريخ بدا منذ القدم، فنجد بعض آثاره في كتاب (السياسة) لارسطو، وكتاب (الجمهورية) لافلاطون، أما التعبير نفسه فلم يستحدث الا في القرن الثامن عشر.

فصفات هذا الفرع من علوم التاريخ كالأتي:

1- هو جزء من العلوم الكلية لا الجزئية، حيث تكون نقطة البدء في فلسفة التاريخ تكاملا بينا لأجزاء، وترابطا بين الوقائع.

2- هو من العلوم العقلية وليس النقلية، لان فيلسوف التاريخ يختزل العلل الجزئية للحوادث الفردية إلى علة واحدة او علتين على أكثر تقدير، ويفسر في ضوء التاريخ العالمي، لإعادة تشكيل وقائع التاريخ ليقدم بصورة عقلية.

3- مسائل هذا العلم تبتدئ من الماضي، وتستمر إلى الحال والمستقبل، ففلسفة التاريخ تتجاوز مقولة الزمان والمكان إلى ما وراء الزمان والمكان.

لعل اخطر ما واجهه هذا الفرع من علوم التاريخ، في مجال البحث في فلسفة التاريخ هي تلك النظرة الاحادية لحركة التاريخ والتي أدت إلى ظهور نظريات مشهورة تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد في تفسيرها، وتلغي العوامل الأخرى، والتي يعبر عنها (بنظريات العامل الواحد في تفسير التاريخ)، وهذه النظريات:

1- نظرية عامل الجنس البشري.

2- نظرية عامل البيئة الطبيعية والجغرافية.

3- نظرية الغريزة الجنسية.

4- نظرية البطل او الدور الفرد.

يذكر لنا الدكتور علي حسين الجابري في كتابه (فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر) وكذلك الدكتور هاشم يحيى الملاح في كتابه (المفصل في التاريخ) ابرز ملامح فلسفة ابن خلدون التي اثارة العرب وباحثين الغرب في تناوله لتاريخ ولعل الدكتور الجابري اكثر تبويب لهذه الخصائص :

1- الأصالة : استيعابه العميق لعراقة التاريخ، مشككا بالمعلومات التوراتية ومؤكدا الوطن العربي هو مركز الفعل الحضاري منذ قدم لكنه تحقق على يد محمد (ص) الانجاز التاريخي العظيم من جديد ليكون خاتمة سلسلة الرسالات، وجامع العرب على كلمة واحدة.

2- البيئة الحضارية : تعد الأرض العربية من أخصب الأراضي المجاورة مما جعلت العمران فيها مستقرا ولكن بعد ترف الدولتين الأموية والعباسية كان الضعف وكان التخلف حتى هيئة أرضية إلى الغرباء لتحكم بالسلطة من جديد، وتأجج صراع بين البداوة والحضارة، وبين التوحش والمدنية.

3- الإنسان صانع التأريخ:آمن ابن خلدون بان (ان الإنسان خليفة أعمال إنسانية في كل مكسوب ومتحول) من منطلق قراني قال تعالى:(ليس للإنسان إلا ما سعى) وباختلاف هذا السعي يختلف الناس في معاشهم، (حضارتهم) وعليه يصبح العمل الجليل والنافع، هو المقصودة من الفعل الحضاري التاريخي.

4- تبادل الأدوار فقد افرد الدكتور احمد محمود صبحي فصل خاص في هذا الموضوع فاسماه (نظرية التعاقب الدوري للحضارات ) فذكر ان الدراسة عند ابن خلدون تعاقب الدوري للحضارة تكون في ثلاثة أطوار وقد أيد ذلك الدكتور جميل موسى النجار فقال هنالك ثلاثة أجيال تتعاقب على الدولة :

- طور البداوة:كمعيشة البدو في الصحاري والبربر في الجبال والتتار في السهول، وهولاء جميعا لا يخضعون لقوانين مدنية وال تحكمهم سوى حاجتهم وعادتهم.
- طور التحضر:حيث تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح ثم الاستقراء في المدن.
- طور التدهور: نتيجة الانغماس في الترف والنعيم.

5- النهضة والقوة العادلة:إن الدور التاريخي للجماعة لا يتوفر إلا بحضور أسباب ذاتية وموضوعية تضع (القوة) في سياقها (العقلاني) الصحيحة من خلال (الدولة) التي توظف وحدة الكلمة وشدة الشوكة العصبية.من اجل الوصول إلى العمران الكامل تستهدف البداوة تحقيق الحضارة لان العمران كله عند ابن خلدون (بداوة وحضارة) فيحتاج إلى يد قاهرة لكي تتمكن من الملك الكامل.

6- النهضة والانحطاط: يعلل الجابري من كتاب المقدمة بسبب الحكام وأساليبهم قياداتهم للسلطة فيستدل بقول ابن خلدون (إلا حين يكون السائس قاهراً).

7-المعرفة التاريخية : اهتم ابن خلدون بذلك وجعلها شرطا للتدبير والسلوك الحميد والفعل المعتدل لكل رئيس فاضل وحكيم ممن أحاط بقواعد السياسة واختلاف الأمم والبقاع والأزمنة والسيرة إلى جانب استيعابه للحضارة فقد ذكر ابن خلدون:(الغائب الماضي) ويقصد به عملية التفكير والتعقل، وذكر (مضمونا ومنهجا) إي معرفة التاريخ ومنطق التغير والتبدل ولهذا جعل ابن خلدون العمران البشري مدخلا لم يغفل منطق التغير والتطور والتبدل،وذكر أيضا (ديمومة التجربة) وهي عامل من عوامل (قوة التجربة) المدعومة (بعصبية) المجتمع المتجدد التي تطل عمر الدولة إذا جاءت مقترنة بنظام عادل والعكس صحيح.

9- العامل القومي: ومع مسحة التشاؤم التي سادت كتابات ابن خلدون عن واقع العرب والعروبة، بسبب غياب دولتهم الحامية السامية القاهرة، راح يحلل الطبيعة الاجتماعية للعرب كوجود حضاري وواقع متخلف،في سياق عمراني وفق(البداوة والحضارة ) وعلى أساس واقع ال

المبحث الثالث: المؤاخذات المنهجية عند ابن خلدون.

المطلب الأول : أراء الباحثين في مدى تطبيقه للمنهج :

إن النقد هو من أساسيات البحث العلمي في كل العلوم، و قد مارسه علماء المسلمين قديما و حديثا انطلاقا من ديننا الحنيف، فالقرآن الكريم فيه انتقادات كثيرة لليهود و النصارى و المشركين، وفيه أيضا معاتبات وتأنيبات وانتقادات للصحابة الكرام . وفيه حث على نقد الأخبار وتمحيصها بمختلف الوسائل الممكنة، في قوله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}..

وللنقد العلمي النزيه فوائد كثيرة، منها إنه طريق للوصول إلى الحقيقة عندما تتضارب الروايات وتختلف الآراء. وإنه وسيلة لطالب العلم يجعله يحتكم دوما إلى النصوص والأدلة قبل النظر إلى الأشخاص. وإنه أيضا يساعد أهل العلم على الابتعاد عن التعصب المذموم،و تقديس الشخصيات و اعتقاد العصمة فيها ؛ والله سبحانه وتعالى يقول (( وفوق كل ذي علم عليم )).

يذكر بان جملة من الباحثين نقدوا منهجية ابن خلدون منهم :

1- <u>في الجانب العلمي</u>: قضية إسناد الرواية مهم جدا عند الباحثين فالدكتور علي اومليل في قضية سند الرواية التاريخية، قال ان (ابن خلدون قد رفض (الإسناد) منهجا للتاريخ، وانه بهذا قد خرج عن تقليد متداول منذ قرون..).، ومن استقراء الناقص قد يعطي نتائج نسبية غير دقيقة فقد ذلك الدكتور علي عبد الواحد وافي قال: (لذا فقد جاء استقراؤه للظواهر الاجتماعية ناقصا ومحصورا بالوطن العربي وتاريخه فلا غرابة أن تكون القواعد والسنن العامة التي استخرجها وظنها قوانين عامة تصلح لكل زمان ومكان لا يعدو يكون منها أن تكون ملاحظات وأحكامها ذات صلاحية نسبية، أيأنها تصلح للتطبيق على الحالات التي درسها وحتى الظروف التي كانت قائمة في عصره.

ان تأسيس علم بحد ذاته يحتاج إلى رجالات والى عدة قرون حتى تكتمل قوانينه وأسسه فقال ساطع الحصري في دراسته عن تأسيس علم من العلوم: (دراسة الموضوع بكامله، آو اكتشاف قوانينه باجمعها، لان ذلك يستحيل على شخص واحد حتى على رجال قرن واحد، فلو اشترط ذلك، لما امكن تسميته أي مفكر كان باسم

(المؤسس) لاي علم كان، لان العلوم تتكون وتتقدم شيئا فشيئا، بوجه عام حتى إننا نستطيع أن نقول ان بناء العلم يعلو ويتوسع دائما، ولا يتم ابدا)

2- الجانب التاريخي : إن اهتمام التاريخي لابن خلدون في بعدي الدولة والمجتمع جعل علماء المعاصرين ينقدونه أكثر من الاهتمام الاجتماعي، قال الدكتور محمد عابد الجابري: (ومن هنا كان علم العمران الخلدوني أضيق من علم الاجتماع من الناحية الأفقية ولكنهأ عمق منه من الناحية العمودية، الناحية التاريخية،... ومن هذه الزاوية يبدو علم العمران اقرب إلى التاريخ منه علم الاجتماع).

يذهب كثير ابن خلدون الى ان الجنس العربي وما تدور حوله من مقومات للعصبية القبلية وتطور نظرية السياسية يذكر الحصري : (يعزو أهمية كبرى إلى تأثير الدم والجنس- العنصر- في حياة الأمم، وبنو زعيمهم هذا على نظرية العصبية التي وضعها، قالوا يذهب ابن خلدون إلأن العصبية هي نتيجة طبيعية لرابطة الدم والنسب، فيظهر من ذلك انه يعزو دورا هاما إلى هذه الرابطة، شان القائلين بنظرية الأجناس وبأهمية الأوصاف العرقية).

3- الجانب الحضاري: أن كلام ابن خلدون عن أعمار الدولة وأعمار الأجيال كلام غير دقيق ولا يخلو من اضطراب،فهو يقول بصدد حديثه عن أسلوب نقد سلاسل النسب عند العرب:(فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف ثم سن الرجوع، ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور أن عمر الدولة مائة سنة، وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصحح لك عدد الإباء في عمود وكانت السنون الماضية منذ أولهم محصلة لديك، فعد لكل مائة من السنن ثلاثة آباء..).

يتبين أن ابن خلدون غير عالم بأحوال الحضارة بشكل جيد، إشارة هاشم يحيى الملاح في ملاحظات حول فلسفة ابن خلدون التاريخية في العمران إذ: (عد ابن خلدون الحضارة أحوالا عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، ثم قرن بينها وبين الترف والفساد، فقرر أن غاية العمران هي الحضارية والترف، وانه اذا بلغ غاية انقلب إلى الفساد).

ذهب احد الباحثين إلى (مبالغة ابن خلدون في أثر القادة والحكام في شؤون الاجتماعية والتطور الاجتماعي)، وقد استند في ذلك إلى قول ابن خلدون الآتي: ( والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الأمثال الحكيمة: الناس على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلابد وان يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل...)

المطلب الثاني : وقفت علمية على مدى تطبق منهج ابن خلدون :

يقوم منهج ابن خلدون في النقد التاريخي على جملة قواعد يجب الالتزام بها في تحقيق الروايات التاريخية ونقدها، منها إرجاع الأخبار والآثار إلي طبائع العمران وأحواله، فهي من أحسن الوجوه وأوثقها، في تمحيص الأخبار و تمييز صحيحها من سقيمها.

ومنها أيضا التركيز على نقد متون الأخبار و تقديمها على نقد الأسانيد-تتضمن رواة الأخبار-، وقال إن النظر في المتن من حيث الإمكان والاستحالة سابق على نقد الإسناد- أي نقد الرواة جرحا و تعديلا-، فلا يُرجع إليه-أي الإسناد- حتى يُعلم الخبر في نفسه، أهو ممكن أم ممتنع، فإذا كان مستحيلا فلا فائدة من النظر فيه، فأصبح ذلك أهم من نقد الإسناد و مقدما عليه.

ومنها –أي القواعد– تحكيم العادة و قواعد السياسة والأحوال في الاجتماع الإنساني، وقياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، وإخضاعها للعقل من حيث الإمكان والاستحالة، مع ضرورة تطابقها مع طبائع العمران.

ثم فرّق ابن خلدون بين الخبر الشرعي و الخبر البشري، و جعل نقد الإسناد خاصا بالأول –أي الخبر الشرعي، وجعل نقد المتن خاصا بالثاني–أي الخبر البشري–، وفي ذلك يقول: (( وإنما كان التعديل و التجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية –أي أوامر و نواه– أوجب الشارع العمل بها، حتى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط... وأما الإخبار عن الواقعات –أي أخبار البشر– فلا بد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن يُنظر في إمكان وقوعه، وصار أهم من التعديل ومقدما عليه، إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة)).

كما أنه انتقد المؤرخين المسلمين انتقادا لاذعا، وقال إن الفحول منهم لم يرفضوا تُرهات الأحاديث ولا دفعوها، والتحقيق عندهم قليل و طرف التنقيح في الغالب كليل. ثم قال إن الكبار– من هؤلاء – الذين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة المعتبرة هم عددهم قليل، منهم : محمد بن إسحاق ( ت150هـ)، و سيف بن عمر التميمي(ت 200هـ)،ومحمد بن الكلبي( ت204هـ)،ومحمد بن عمر الواقدي(ت 207هـ)،وابن جرير الطبري(ت310هـ)، والمسعودي(ت346هـ)، ثم قال: (( وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الأثبات، ومشهور بين الحفظة الثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم،و اقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم )).

ثم أشار ابن خلدون إلى أنه جاء بعد هؤلاء الكبار مؤرخون أرّخوا لمدنهم وأقطارهم و دولهم، كأبي حيان مؤرخ الأندلس(ت 469هـ)، وابن الرقيق القيرواني(ت بعد:417هـ) مؤرخ إفريقيا والدول التي كانت بالقيروان، ثم قال: ((ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع والعقل، أو متبلّد ينسج على ذلك المنوال، من يُحتذى منه بالمثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال))، وهؤلاء– دون ذكر لأي منهم– جمعوا الروايات جمعا دون بحث عن الأسباب في ذكرهم للأخبار.

وقال أيضا إن كثيرا من المؤرخين و المفسرين والمحدثين المسلمين غلطوا في روايتهم للأخبار، لاعتمادهم على مجرد النقل دون أن يُحققوها، وذكر أن بعض المؤرخين ذكروا المستحيلات في مصنفاتهم ولم يُمحّصوها، كالمسعودي الذي روى أخبارا مستحيلة، منها رواية تمثال الزرزور بمدينة روما، الذي تجتمع عنده الزرازير كل عام وهي حاملة للزيتون، تأتي به إلى هذا المكان. ومنها أيضا حكاية وجود مدينة مبنية كلها بالنحاس بصحراء سجلماسة جنوب المغرب الأقصى.

وذكر أيضا أن من أسباب غلط المؤرخين في تدوينهم للتاريخ، منها أنهم يذهلون عن تبدّل الأحوال و الظروف والملابسات في حياة الأمم و الأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، فلا يتفطنون لتلك التحولات و التغيرات، فيقعون في الأخطاء.

ومنها ولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة عن المتعقب والمنتقد، حتى إن أحدهم لا يُحاسب نفسه على الخطأ، وهذا هو الذي أوقعهم في الغلط في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر، والمبالغة فيها.

ومنها أيضا التشيعات للآراء والمذاهب، والثقة بالناقلين، والتقرّب إلى ذوي السلطان والجاه، والجهل بطبائع الأحوال في العمران البشري، فإذا كان الراوي عارفا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضاها، أعانه ذلك في تمحيص الأخبار من حيث الصدق والكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه.

نقد نظرية العمران البشري :

وتعليقا على ما ذكره ابن خلدون أقول :

أولا :إنه كان غامضا وغير دقيق في تعريفه للعلم الذي قال إنه اكتشفه، وفي تحديده أيضا لموضوعه، بدليل الشواهد الآتية:

أولها: إنه كان يتكلم عن قانون المطابقة في تمحيص الأخبار، وقال عنه إنه معيار صحيح يتحرى (( به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه،))، ثم قال مباشرة (( وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري، والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى،وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيا كان أو عقليا )).

فهذا خلط واضح بين منهج تحقيق الخبر ،ومنه قانون المطابقة الذي كان يتكلّم عنه،و بين علم العمران الذي قال إنه مستقل بموضوعه ومسائله. فقد كان يتكلم عن قانون المطابقة، ثم مباشرة شرع في الكلام عن علم جديد، سماه العمران البشري، وتعريفه له لا ينطبق على قانون المطابقة الذي هو من خطوات منهج نقد الأخبار وتمحيصها، وهو وإن كان موضوعه تاريخ الاجتماع الإنساني، فإنه لا يدرس ما يلحق العمران البشري من عوارض وأحوال، وإنما دوره هو تحقيق الروايات التاريخية و تمحيصها، الأمر الذي يدل على أن كلامه عن العلم الجديد منفصل عن كلامه في قانون المطابقة، وإن كان سياق الكلام يُشير إلى ارتباطه به، مما يجعله غير مستقيم معه.

وايضا هو أنه ميّز علمه الجديد عن علمي الخطابة والسياسة، وقال إنه يختلف عنهما من حيث موضوعه رغم أنه ربما يُشبههما. وقوله هذا فيه خلط وغموض، وغياب التصوّر الكامل للعلم الجديد.

فهو إن كان يقصد بعلمه الجديد، منهج تحقيق الخبر، و منه قانون المطابقة، فإن التمييز بينه و بينهما في غير محله، لأن الأول –أي منهج تحقيق الخبر– موضوعه ماضي الاجتماع البشري، والآخران موضوعهما الحاضر المرتبط بالخطابة والسياسة، وعندما يتحولان إلي ماضٍ يصبحان موضوعا للعلم الأول الذي هو منهج تحقيق لأخبار الماضي على اختلافها وتنوّعها

كذلك هو أنه عندما ذكر سبب عدم تركيز الحكماء والعلماء على علمه الجديد، قال لعله صرفهم عن ذلك تركيزهم على العناية بثمرات العلوم الأخرى، في حين أن علمه الجديد إنما ثمرته في الأخبار فقط،و إن كانت مسائله في ذاتها واختصاصها شريفة، لكن (( ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة، فلهذا هجروه )).

فواضح من كلامه أنه يقصد منهج تحقيق الروايات ونقدها، لأنه هو الذي ثمرته تصحيح الأخبار ،وعلم العمران البشري ليست ثمرته تصحيح الأخبار، وإنما هو نفسه موضوع لمنهج تحقيق الأخبار. فهذا دليل قوي على أن ابن خلدون لم يكن له تصوّر واضح و كامل، وصحيح عن العلم الذي قال إنه اكتشفه، فلم يُقدم لنا تعريفا دقيقا له، ولم يُفرق بينه وبين منهج نقد الأخبار.

في ختام كلامه عن طبيعة العمران في الخليقة، تخلّص من ذلك الغموض والخلط بين منهج تحقيق الأخبار وعلم العمران، وذلك أنه عندما انتهى من ذلك شرع في دراسة مختلف مظاهر العمران البشري والاجتماع الإنساني، تناولها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا و حضاريا وعلميا، دون الإشارة إلى منهج نقد الأخبار.

ثانيا: إن ابن خلدون قال عن العلم الذي ذكر أنه اكتشفه، إن الله تعالى ألهمه أياه إلهاما. وقوله هذا فيه غموض والتباس،وهو نوع من التمويه، لأن مفاده أن اكتشافه لذلك العلم حدث بلا مقدمات، ولا بحث ولا معاناة، وهذا غير صحيح تماما، بدليل :

1- إنه هو شخصيا اعترف في موضع سابق من المقدمة، أن اكتشافه للعلم الجديد، إنما (( أَعثَر عليه البحث، وأدى إليه الغوص )).

2- كان ابن خلدون مضطربا ومخلطا، وغير دقيق في تعريفه للعلم الجديد، ولم يتمكن من تحديد موضوعه بدقة إلا في النهاية، مما يدل على أنه بذل جهودا للوصول إلى ذلك، ولم يحدث له ذلك إلهاما دون معاناة.

3- إن ابن خلدون ذكر أنه أنهى كتابه الأول عن العمران البشري، سنة 779 هجرية، في مدة 5 أشهر . ومعروف أنه شرع في كتابة تاريخه سنة 776هجرية، بقلعة بني سلامة بالغرب الجزائري، مما يعني أن كتابته لكتاب العمران البشري، سبقتها مرحلة الجمع والبحث والمعاناة وتدوين مسوّدة الكتاب، فجاء كتاب العمران ثمرة لذلك، ولم يكن إلهاما بلا مقدمات.

ثالثا: إن ابن خلدون قال إن العلم الذي اكتشفه يبدو أنه مستنبط النشأة،وأنه لم يقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، فهل لأنهم غفلوا عنه، أم أنهم كتبوا فيه واستوفوه،ولم يصل إلينا ؟، ثم ذكر أنه لاحت له خيوط ومسائل مبعثرة من هذا العلم تكلم فيها الحكماء والعلماء و الفقهاء عرضا، من ذلك قول الفقهاء في أصول الفقه في باب اللغات، من أن الناس محتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع،ومنها تعليلهم للأحكام الشرعية بالمقاصد، في أن الزنا مُخلط للأنساب ومُفسد للنوع ، وقولهم إن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع. ثم قال ابن خلدون إن آرسطو هو أيضا له كلام قليل له علاقة بعلم العمران، لكنه عير مُبرهن ومُختلط بغيره.وذكر أيضا أن القاضي أبا بكر الطرطوشي حوّم حول علم العمران في كتابه سراج الملوك، وبوّبه على أبواب تقّرب أبواب مسائل كتابه العمران البشري –لابن خلدون –لكنه لم يُصادف فيه الرمية،ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، فجاء كلامه نقلا و تركيبا شبيها بالمواعظ.

فهل استوفى ابن خلدون ذكر الذين سبقوه إلى النظر في علم العمران البشري والتكلم فيه ؟، وهل يُعد هو–أي ابن خلدون– مؤسس علم العمران البشري ومبدعه ؟،وإجابة على ذلك :

1- إن القرآن الكريم تطرّق لعلم العمران البشري في آيات كثيرة، قبل ابن خلدون بقرون عديدة، وذلك أن القرآن الكريم أكد على أن العمران البشري محكوم بسنن و قوانين لا تتبدل ولا تتحول، وأنها تحكم الأفراد و الجماعات والأمم على حد سواء، وذكر على ذلك أمثلة كثيرة، منها آيات نصت على وجود علم العمران البشري، كقوله تعالى: (( سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا ))–سورة الأحزاب/62–، و(( سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا ))– سورة الأحزاب /38–، و(( فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا،ولن تجد لسنة الله تحويلا ))–سورة فاطر/43–، و(( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ))–سورة آل عمران/137–، و(( سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا،و لا تجد لسنتنا تحويلا ))–سورة

الإسراء/77-، و(( سنة الله التي خلت في عباده، وخسر هنالك المبطلون ))-سورة غافر/85- ، و(( سنة الله التي قد خلت من قبل،ولن تجد لسنة الله تبديلا ))-سورة الفتح/23- ، و(( وما منع الناس أن يُؤمنوا إذ جاءهم الهدى،و يستغفروا ربهم، إلا أن تأتيهم سنة الأولين ))-سورة الإسراء/94-.

فيتبين من هذه الآيات أنها أكدت على وجود علم العمران البشري، عندما نصت على أن الاجتماع الإنساني محكوم بسنن لا تتبدل ولا تتغير، وأنها تخص الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم،و أنها سنن حكمت العمران البشري في الماضي، وما تزال تحكمه في الحاضر، وستبقى تحكمه في المستقبل.

وأما الآيات التي ذكرت تفاصيل قوانين علم العمران وسننه، فمنها سنة التدافع، قال تعالى:(( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين ))-سورة الحج/40-. ومنها سنة تكذيب المترفين للرسل، قال تعالى: (( ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ))-سورة الزخرف/23-. ومنها سنة تداول الأيام بين الأمم والدول، وحتمية سقوطها، لقوله تعالى:(( وتلك الأيام نداولها بين الناس))-سورة آل عمران/140-، و(( لكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ))-سورة الأعراف/34-. ومنها قانون تغيير الأنفس والمجتمعات، كقوله تعالى:(( إن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم ))-سورة الرعد /11- .

ومنها أيضا سنن تتحكم في نفسيات الإنسان وردود فعله تجاه بعض ما يعترضه في هذه الدنيا، كقوله تعالى: (( لا يسأم الإنسان من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي، وما أظن الساعة قائمة، ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ))-سورة فصلت/49- ، و(( إذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ))-سورة الإسراء/83-، و((وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ))-سورة الكهف/54- .وسنن الاجتماع في القرآن كثيرة جدا، فمن أراد الإطلاع عليها والتوسع في دراستها فليرجع إلى المصنفات الحديثة التي توسعت في دراسة سنن الاجتماع و التاريخ في القرآن الكريم.

2- هو أن السنة النبوية هي أيضا أشارت صراحة إلى وجود علم العمران البشري، عندما نصت على وجود قوانين تحكم سلوكيات البشر في الماضي و الحاضر و المستقبل، فمن ذلك أن رسول الله (ص) قال للصحابة: (( لتتبعن سنن الذين قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى، قال: فمن إذن )).

وفي حديث آخر أن الرسول –ص- و الصحابة مروا بشجرة سدر للكفار يُعلقون عليها أسلحتهم،و يعكفون عليها ويسمونها ذات أنواط، فقال الصحابة لرسول الله: (( إجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط ))، فقال:(( الله أكبر إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال موسى –عليه السلام- :(( إنكم قوم تجهلون ))، ثم قال رسول الله : (( إنكم لتركبن سنن من قبلكم )). وفي حديث آخر أن رسول الله-ص- إنه قال:(( لا تترك هذه الأمة شيئا من سنن الأولين حتى تأتيه )).

وبذلك يتبين مما ذكرناه عن علم العمران البشري في القرآن والسنة، أن هذا العلم هو علم شرعي إنساني، شرعي لأن الشرع نص على وجوده،و ذكر كثيرا من قوانينه، وحث على دراسته بحثا وتدبرا. وإنساني لأنه يخص العمران البشري كله، والبحث فيه مفتوح للبشرية جمعاء.

وبذلك يتبين مما ذكرناه أن ابن خلدون لم يستوف ذكر الذين سبقوه إلى التطرق لعلم العمران والتكلم فيه. وأنه ليس هو مؤسسه ولا مكتشفه، فقد تكلّم عنه القرآن الكريم صراحة، وتطرّق لكثير من سننه وتطبيقاته. وقد سبقه إلى الإشارة إليه، والحوم حوله، والنظر فيه، والاعتقاد بوجوده طائفة من العلماء، قبل أن يكتب هو مقدمته.

وعليه فإن القرآن الكريم هو المؤسس الحقيقي لعلم العمران البشري ، وأما ابن خلدون فهو مؤسسه ومكتشفه بالنسبة لغيره من العلماء، بحكم أنه تكلّم عنه صراحة، وتوسع فيه وأفرده بالتأليف بعد القرآن بأكثر من 750 سنة؛ فجاء اكتشافه لعلم الاجتماع الإنساني ثمرة متأخرة للعلوم الشرعية، والحضارة الإسلامية. فلماذا تأخر ظهورها هذه المدة الطويلة ؟.

يبدو لي أن السبب في ذلك التأخر هو قلة اهتمام العلماء بعلم سنن العمران البشري رغم تكلم القرآن عنه، لأنهم وجهوا معظم جهودهم لخدمة العلوم الأخرى كالفقه،و الحديث، وعلم الخلاف، وعلم الكلام، والفلسفة، فعلوا ذلك–في الغالب– خدمة لمذاهبهم واتجاهاتهم، أو تعصبا لطوائفهم ومذاهبهم. فكان ذلك على حساب الاهتمام بعلم سنن الاجتماع الإنساني .

ثالثا :إذا كان ابن خلدون هو مؤسس علم العمران البشري –عل مستوى أهل العلم–، فما هي العوامل التي ساعدته على اكتشافه ؟، لم يذكر ابن خلدون العوامل التي ساعدته على ذلك،وقال إن اكتشافه لعلم العمران جاء ثمرة للبحث والغوص والإلهام. فهل قوله هذا صحيح ؟.

قوله هذا غير صحيح على إطلاقه، فقد تداخلت عوامل كثيرة ساعدته على اكتشافه لعلمه،و الشواهد الآتية تُثبت ذلك بوضوح، أولها إن ابن خلدون كان متأثرا بالقرآن الكريم تأثرا بينا لا لُبس فيه،عندما تكلّم عن العمران البشري وقوانينه، فكثيرا ما استخدم الآيات القرآنية في تقعيده لقوانينه، منها قوله تعالى:(( سنة الله التي خلت في عباده))–سورة غافر/85–، في مبحث : إن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد. ومنها قوله تعالى (( فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ))–سورة الأعراف /34–، استخدمه في مبحث: أعمار الدول. ومنها قوله سبحانه: ((والله يُؤتي ملكه من يشاء ))–سورة البقرة/247– استخدمه في مبحث: ما يعرض في الدول من حجر على السلطان والاستبداد عليه.

وتأثر بالقرآن أيضا في استخدامه لكلمة : العمران و إطلاقها على العلم الذي قال إنه أكتشفه، فقد سماه: العمران البشري، و كلمة العمران موجودة في القرآن الكريم بمعنى الاجتماع الإنساني، في قوله تعالى:(( هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ))–سورة هود/61–، و(( وكانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها))–سورة الروم/9– .

وتأثر به أيضا في استخدام كلمة:العبر، فقد جعلها عنوانا لتاريخه: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر،وهي موجودة في القرآن الكريم، في عدة مواضع، منها قوله تعالى:(( فاعتبروا يا أولي الأبصار))–سورة الحشر/2–، و((لقد كان في قصصهم عبرة للأولي الألباب ))–سورة يوسف/66–، و(( إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ))–سورة النازعات /26.

وأيضا ابن خلدون تأثر أيضا بالسنة النبوية تأثرا واضحا، في تقريره لكثير من قوانينه، من ذلك استخدامه لقوله –عليه الصلاة و السلام–:(( كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه، أو يُنصّرانه، أو يُمجّسانه ))، وحديث ((الناس معادن خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا))،وقوله –عليه الصلاة والسلام– ((ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه )).

وتأثره بالعلوم الشرعية في مناهجها وقوانينها عامة،وبالفقه وقواعده وأصوله خاصة، فمن القواعد الفقهية: لا ضرر ولا ضرار، والمشقة تجلب التيسير، والأصل في الكلام الحقيقة، والغنم بالغرم، ودرء المفاسد أولى من جلب المصالح،و اليقين لا يزول بالشك. فهذه القواعد والقوانين الفقهية، يبدو أن ابن خلدون قد تأثر بها، فجاءت قوانينه في العمران البشري على شاكلة القوانين الفقهية، كقوله: إن أهل البدو أقرب إلى الخير من الحضر، وإن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها، وإن العرب لا يتغلّبون إلا على البسائط. ومنذ ذلك ما قاله عمر سليمان الاشقر في كتابه (تاريخ الفقه الاسلامي)، تناولوا ذلك في أصول الفقه و تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد، كقولهم: إن الناس مُحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون و الاجتماع، وإن القتل مُفسد للنوع، وإن الظلم مؤذن بخراب العمران المُفضي لفساد النوع.

وآخرها هو اعترافه بأنه وُجد من الفلاسفة والعلماء والفقهاء، من سبقه إلى النظر في بعض مسائل علم العمران البشري، فبعضهم تكلّم عنه عرضا، وبعضهم لم يستوفه ولم يعطه حقه من البسط و البرهان، وبعضهم حوّم حوله ولم يُصادف الرمية، ولا أصاب الشاكلة. والراجح أنه استفاد مما كتبه هؤلاء عن العمران البشري، حتى وإن لم يُصرّح هو بذلك، لأنه عودنا على الأخذ من غيره دون التصريح بذلك.

وتلك الشواهد التي ذكرناها لا تُلغي العامل الذاتي في شخصية ابن خلدون، فلا شك أنه العامل الأهم فيما كتبه عن العمران البشري، فبفضل ذكائه واجتهاده، وتجاربه في الحياة تمكن من إنجاز ذلك العمل الهام، مع العلم أن هذا العامل هو أيضا لم يظهر من فراغ، ولا يُلغي العوامل الخارجية التي ذكرناها آنفا. وبذلك يتبين جليا أن ابن خلدون لم يكن صريحا عندما أرجع اكتشافه لعلم العمران إلى ذاته وعبقريته وإلهامه، وأغفل أثر العوامل الخارجية، وخاصة القرآن الكريم الذي يُعد –في نظري– المصدر الأساسي الذي استلهم منه ابن خلدون علم العمران البشري.

المصادر :


[1]– فلسفة التاريخ عند جامبا تيستا فيكو –د عطيات محمد ابو السعود، دار التنوير – بيروت 2006م.

[2]– فلسفة التاريخ مباحث نظرية –د. جميل موسى النجار –الجامعة المستنصرية– بغداد2007م،ط1،.

[3]– فلسفة التاريخ عند ابن خلدون –د زينب محمود الخضري –بيروت – دار الفارابي 2006م.

[4]– في فلسفة التاريخ– د. احمد محمود صبحي –دار النهضة العربية بيروت 1993.

5– حركة التاريخ في القران الكريم –عامر الكفيشي– دار الهادي، بيروت 2003م، ط1،.

[6]– العمران البشري في مقدمة ابن خلدون –د. سفيتلانا باتسيفيا –ترجمة رضوان ابراهيم،ليبيا– 1978.

[7]– في فلسفة التاريخ –خالد فؤاد طحطح– الجزائر 2006م، منشورات الاختلاف، ط1،.

[8]– العمران البشري في مقدمة ابن خلدون– مصدر سابق :.

[9]– فلسفة التاريخ –السيد محمد الحسيني الشيرازي (قد)– تحقيق الشيخ صاحب مهدي، دار القارئ، بيروت 2005م، ط1.

10 – دراسات في مقدمة ابن خلدون –ساطع الحصري، دار الكتاب العربي، بيروت1967م، ط3،.

11– علم الاجتماع الخلدوني قواعد المنهج– د. حسن الساعاتي –بيروت – 1974، ط2،.

12– النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ –حسن سلمان –بلا.

13– المفصل في فلسفة التاريخ –الدكتور هاشم يحيى الملاح –دار الكتب العلمية، بيروت 2007، ط1.

14- التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون –د. عبد الحليم عويس –الدوحة.
15- عبد الرحمن ابن خلدون- د. علي عبد الواحد وافي- مصر سلسلة أعلام العرب عدد 4، بلا،.
17 فكر ابن خلدون العصبية والدولة- محمد عابد الجابري –بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
18- ابن خلدون تاريخ، دار الاعلمية، بيروت، ج1،.
19- ابن خلدون : المقدمة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، 29.
20- عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم و الجماعات و الأفراد.
21- البخاري: الصحيح، ج 3.
22- مسلم : الصحيح، ج 4.
3-2- ابن حبان : صحيح ابن حبان، حققه شعيب الأرناؤوط ، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1993،ج 15.
24- الترمذي : السنن، ج 4 ص: 475.
25- بن أبي عاصم : كتاب السنة، حققه الألباني، ج 1 /76.
26- الحديث صححه الألباني. الأحاديث الصحيحة، مج 3.
27- ابن حجر: فتح الباري، ج 13 ص: 301. والهيثمي:مجمع الزوائد، القاهرة ن دار الريان للتراث، 1407،ج 7.
28- الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج 2.
29- عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي، الجزائر، قصر الكتاب، 1990.